نستلمح تأثراً واضحاً بموجة الفكر الوجودي الطالعة قبل الهزيمة، وهو تأثر يتخلل أعمال غسان الأولى، ولا يطبعها بطابعه، بل يترك هامشاً عريضاً للوجود الفلسطيني الذي نقرأه أحياناً بين سطور العمل القصصي وبين ثناياه، وقد نراه في حالة تحققه وعيانيته، وأزمة الوجود الفلسطيني تتخلل العمل وتذوب في بنيته... يمتزج الوجود الفلسطيني المغرب عن أرضه قسراً بأسئلة الوجود البشري التي تسألها هذه الأعمال قائلة اغتراب الذات الفلسطينية في عالم يسحقها ويحاول تذويبها.

تؤكد كتابات غسان على الوحدانية المطلقة التي يعيشها الفرد في جزيرة معزولة، نازفة حركة الداخل عند الشخصية التي تحس وحدتها... فالشخصية تحكي الوجود، الذي يكبلها ويّطرحها... وهذا ما تشعر به كافة الشخصيات في قصص «ذراعه وكفه وأصابعه»[٣٣]، «علبة زجاج واحدة»[٣٤]، «الشاطىء»[٣٥]... ولكن غسان في هذه القصص يؤالف بين الطبيعة في مشهدها الخارجي والداخلية الإنسانية، اذ يتطابق الواقع الخارجي، في انكساره وتحفزه، وعالم الإنسان الداخلي؛ مما يؤكد رؤية غسان في أن تجربة الإنسان شبيهة بتجربة الموجودات، وأزمة الوجود أزمة واحدة منعكسة عن المشهد الطبيعي الذي يحضر في مجموع هذه القصص، والتي تهجس بفعل عربي فلسطيني يحطم قيوده وينطلق مجازفاً في سبيل تحقيق وجوده.

تحكي مسرحية «الباب» هذه المجازفة الخطرة في سبيل فك عرى التجربة البشرية، والمنطوية بحد ذاتها على وعي الإنسان الفلسطيني لوجوده، متخطية حاجز خوفها وقلقها... تنبني المسرحية على فهمها هذا لتسأل أسئلة الوجود، العدم، الخوف، الجبر، والاختيار. ان الصراع بين الارادة التي يحوزها عاد، والقوة الرهيبة التي يحوزها الاله «هبا»... ومن هذا الصراع تتجرد الأحداث وتتحقق جملة المفاهيم التي تطرحها المسرحية.

«في 'الباب' يتعرض غسان لموضوع تمرد الانسان الميتافيزيقي خارج السياق الاجتماعي والسياسي لهذا التمرد. ان 'الباب' عمل فلسفي من الأعمال القليلة جداً لغسان كنفاني التي لا يتناول فيها جانباً من جوانب القضية الفلسطينية. تطرح المسرحية عدداً من الأسئلة التي لا بد وأنها كانت تلح على وجدان كاتبها في تلك الفترة، أسئلة عن الله والصدفة والموت والعالم الآخر، وأسئلة عن الحياة ومعناها وضرورتها»[٣٦]. ولكن هذه الأسئلة تحمل في منطواها اجاباتها على وجود الانسان الفلسطيني في منفاه... فهو منفي ووحيد يشق طريقه وحيداً في نهاية الخمسينات وبداية الستينات دون معونة من أحد، وهو كما يقول غسان في روايته «ما تبقى لكم» «أورثني يقيني بوحدتي المطلقة مزيداً من رغبتي في الدفاع عن حياتي دفاعاً وحشياً»[٣٧]... هذه الوحدة هي المحرك الأساسي لمشاعر القلق الوجودي لدى أبطال غسان في كتاباته، لأن اكتشاف الفلسطيني بأنه يقف وحده بلا سند خارجي يؤدي به الى تمرد ميتافيزيقي قد يقوده الى الثورة أو الى موقف عدمي»[٣٨]. هذا ما تنطق به مسرحياته، وأجزاء من أعماله الروائية، اذ تشكل الأرض بوصفها كياناً بعيداً، جغرافيا لا يصل اليها أبطاله، ذكرى علاقة لا تنفصم، وهاجساً داخلياً يعكس قلق الوجود، فتصبح الأرض موجوداً حياً يتعاطف وينبض بالقربى والحنين[٣٩]. ولا تحل مأساة الوجود هذه في روايات غسان المكتوبة قبل الهزيمة الا